وزادت الاموال التي تنفقها الحكومة على التعليم في هذه المدة من ١٠٤٠٠٠ ج . م الى ٢٣٥٠٠٠ ج . م ثم اضافت الى نفقات التعليم ٤١٠٠٠ ج . م سنة ١٩٠٦ فصار مربوط نظارة المعارف لهذه السنة ٢٧٦٠٠٠ ج . م

ومن رأيي ان التعليم متقدم في القطر المصري على قدر ما تسمح به احوال البلاد . ويعترض سرعة تقدمه صعوبتان الاولى عدم وجود المعلمين المتخرجين في فن التعليم . وسأعود الى هذا الموضوع في ما بعد . والثانية الحاجة الى مباني صالحة للمدارس . فقد انفقت مبالغ طائلة في السنين الاخيرة على بناء المدارس ومع ذلك لاتزال نظارة المعارف العمومية محتاجة الى مباني اخرى لان ما بني لها لايفي بحاجتها فقد بيّن المستر دنلوب في مذكرة كتبها حديثاً " ان الحاجة ماسة الى ٤٠٠٠٠٠ ج . م وهو تقدير معتدل جداً " . ولا اشك في صحة قوله ولكن لابدّ من حفظ موازنة المالية ولو بالاغضاء عن لوازم التعليم . واخشى انهُ يمضي وقت قبلما تتمكن نظارة المالية من منح هذا المبلغ كلهِ . واذا منحتهُ فانا مرتاب جداً في امكان استعمالهِ بالسرعة المطلوبة اذا روقب انفاقهُ المراقبة الواجبة

القبريّات [1]

قبريات العرب

لم يألف العرب الأنصاب التي تقام على القبور وعمّا نعلمهُ من امرها ان النعمان بنى على قبر نديمهِ ما عُرف بالغريين ويُروى ان جسّاساً وضع على جثة كليب يوم قتلهِ حجارة لئلاّ تأكلها السباع . اما في الاسلام فعرف امرها بدليل ما جاء في الحديث " اعلّم بالحجر قبر اخي " . ولما مرّ حيّان بن سلمى الكلابي بقبر عامر بن الطفيل العامري (المتوفى سنة ١١ هـ ٦٣٢ م) وعليهِ انصاب قال ما هذه الانصاب . فقالوا نصبناها على قبر عامر فقال : ضيّقتم على ابي عليّ . ويسمّى ما يوضع على القبر عند العرب من الحجارة جثّوة مثلثة والجمع جُثًى قال الشاعر :

---

(١) نظن ان اوّل من استعمل هذه الكلمة ابن بطوطة في رحلتهِ المطبوعة في مصر سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠ م) الجزء الاول صفحة ١١ و ١٣ و ١٤ و ١٣٥ وكرّرت في الجزء الثاني مرارًا . وكأن هذه الكلمة تعريب حرفي للفظة (Epitaph) الافرنجية وهي يونانية الاصل محرفة من كلمتي (Epe) بمعنى على و (Taphos) بمعنى قبر

أصبْ على قبريكما من مدامةٍ فإلاَّ تنالاها تَرُزْ جثّاكما

اما القبريّات فلعلّها وجدت عند بعض القبائل القديمة اخذًا عن مجاوريهم من الاعاجم الذين اقاموا الانصاب وكتبوا على قبور موتاهم كما سيأتي . ثم كثرت بعد الاسلام وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته انهُ شاهد كثيرًا من قبور الخلفاء والعلماء والصالحين في رصافة بغداد والبصرة والكوفة وغيرها وعلى كل قبرٍ منها اسم صاحبهِ ووفاتهُ

وروى انهُ رأى على مقربة من مدينة ظفار اليمن بموضع يقال لهُ الاحقاف بئية فيها قبر مكتوب عليهِ " هذا قبر هود بن عابر (صلم) " — ويقرب الجامع الاموي في دمشق على تابوت " يازكريا ان نبشّرك بغلامٍ اسمهُ يحيى " وغير ذلك

ومما عرف من قبريات العرب ما روي عن بعضهم ان عبدالله بن جدعان التيميّ لما نفاهُ ابوهُ خرج في شعاب مكة فجاء شقًّا في الجبل فدخل فيهِ فرأى جثثًا طوالاً على سررٍ لم يرَ مثلهم طولاً وعظمًا وعند رؤوسهم لوح من فضة فيهِ تاريخهم واذا هم رجال من ملوك جرهم وآخرهم موتًا الحارث بن مضاض صاحب العذبة الطويلة . ويروى ان اللوح من رخام كُتب فيهِ " انا نفيلة بن عبد المدان بن حشرم بن عبد ياليل بن جرهم بن قحطان عشت من العمر خمسمائة عام وقطعت غور الارض ظاهرها وباطنها في طلب الثروة والمجد والملك فلم يكن ذلك ينجيني من الموت . وتحتهُ مكتوب":

قد قطعتُ البلاد سيفي طلب الثروة والمجد قالصٍ[1] الاثوابِ
وسريتُ البلاد قفرًا لقفرٍ بقناةٍ وقوّة واكتسابِ
فأصاب الردى بنات فؤادي بسهام من المنايا صيابِ
فانقضت مدتي واقصر جهلي واستراحت عواذلي من عتابي
ودفعتُ الفناء بالحلم لمّا نزل الشيب في محل الشبابِ
صاح هل ريت او سمعت براعٍ ردّ في الضرع[2] ما قرى[3] في الحلابِ[4]

قيل ولما قتل سيف بن ذي يزن الحميري وهو في الصيد دُفن بمقبرة اجدادهِ في صنعاء اليمن ووضع في سريرهِ عند رأسهِ لوحٌ كتبت فيهِ هذه الابيات

انا ابن ذي يزنٍ من فرع ذي يمنٍ ملكتُ من حد صنعاء الى عدنِ

(١) من قلص الثوب بعد الغسل اذا انكمش (٢) الضرع لذوات الخف او للشاة والبقر ونحوها بمنزلة الخلف لناقة والثدي للمرأة (٣) جمع (٤) الاناء الذي يحلب فيهِ ويروى هذا البيت لعمرو بن ابي ربيعة المخزومي ولم اجدهُ في ديوانهِ المطبوع

جلبتُ من فارس جيشاً على عجلٍ ... في البحر احمله فيه على السُّفُنِ
حتى غزوتُ بهم قوماً مهاجرةً ... في البرّ جاسوا خلال الحيّ من يمنِ
باخسف والذلّ حتى قال قائلهم ... ذوقوا ثمار ذوات الحقد والاحنِ
فاوقعوا بهم والدهر ذو دولٍ ... حتى كأنّ مغار القوم لم يكنِ
حتى اذا ظفّرت نفسي بما طلبت ... وزال ما كان في قلبي من الحزنِ
وفلتُ اكثر مما كنتُ آملهُ ... من قتلي الجُيُش حتى طاب لي وطني
جاء القضاء بما لا يستطاعُ لهُ ... دفعٌ ولا يشترى يا قومُ بالثمنِ
من بعد ما جبتُ احوالاً مصرمةً ... قطر البلاد فلم اعجز ولم اهنِ
قد صرت مرتهناً في قاع مظلمة ... لله درّي من ثاوٍ ومرتهنِ

وكتب على قبر رجل من كندة هذه الابيات

يا واقفين ألم تكونوا تعلموا ... ان الحمام بكم علينا قادمُ
لو تنزلون بساحتنا لعرفتمُ ... ان المفرّط في التزوّد نادمُ
لا تستغرّوا بالحياة فانكم ... تبنون والموت المفرّق هادمُ
ساوى الردى ما بيننا فيحفرةٍ ... حيث الخدّم واحدٌ والخادمُ

وقيل انهُ سيل باليمن في خلافة ابي بكر الصديق (رضه) فكشف عن باب مغلق فظن كنزاً فاستئذن ابو بكر بشأنهِ فكتب لستأذنيهِ لا تحرّكوا حتى يقدم اليكم كتابي . ثم فتح فاذا برجلٍ على سرير عليهِ حلة من ذهب وفي يدهِ اليمنى لوحٌ مكتوب فيهِ :

اذا خان الامير وكاتباهُ ... وقاضي الارض دانٍ في القضاء
فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ ... لقاضي الارض من قاضي السماء

واذا عند رأسهِ سيف اشدّ خضرةً من البقلة مكتوب عليهِ " هذا سيف عاد بن إرم "

وروى ابن بطوطة في رحلتهِ (جزء اول صفحة ٣١) انهُ رأى بقرب مدينة الخليل في فلسطين قبر فاطمة بنت الحسين بن علي وباعلى القبر واسفلهِ لوحان من الرخام في احدهما مكتوب منقوش بخط بديع "بسم الله الرحمن الرحيم لله العزة والبقاء ولهُ ما ذرأ[1] وبرأ وعلى خلقهُ كتب الفناء وفي رسول الله أُسوة[2]. هذا قبر ام سلمة فاطمة بنت الحسين رضي الله عنهُ " وفي اللوح الآخر منقوش " صنعهُ محمد بن ابي سهل النقاش بمصر " وتحت ذلك هذه الابيات

(١) خلق ومثلها برأ (٢) قدوة

اسكنت من كان في الاحشاء مسكنهُ بالرغم مني بين القرب والحجرِ
يا قبر فاطمةٍ بنت ابن فاطمةٍ بنت الائمةِ بنت الانجم الزهرِ
يا قبر ما فيك من دينٍ ومن ورعٍ ومن عفافٍ ومن صونٍ ومن خفرِ (١)

وكتب على قبر عبد الله بن جعفر المخرمي سنة (٩٠ هـ ٧٠٨ م)

مقيمٌ الى ان يبعث الله خلقهُ لقاؤك لا يُرجى وانت قريبُ
تزيد بلًى في كل يوم وليلةٍ وتُنسى كما تُبلى وانت حبيبُ

وروى الرياشي انهُ رأى على قبر ابي هاشم الاسادي بواسط هذين البيتين :

الموت اخرجني من دار مملكتي والموت اضرعني (٢) من بعد تشريفي
لله عبدٌ رأى قبري فأعبرهُ (٣) وخاف من دهره ريب التصاريفِ

وكتب على ضريح سيبويه امام النحاة (١٨٠ هـ ٧٩٧ م) ابيات لسليمان بن يزيد العدوي وهي :

ذهب الاحبةُ بعد طول تزاورٍ ونأى المزارُ فاسلموك واقشعوا (٤)
تركوكَ اوحش ما يكون بقفرةٍ لم يأنسوك وكربةً لم يدفعوا
قُضي القضاء وصرت صاحب حفرةٍ عنك الاحبةُ اعرضوا وتصدَّعوا (٥)

ووُجد على قبر ابي المندي الشاعر وهو اول من وصف الخمر في الاسلام (١٨٠ هـ ٧٩٧ م) هذه الابيات :

اجعلوا ان متُّ يوماً كفني ورق الكرم وقبري المعصرهْ
وادفنوني وادفنوا الراح معي وضعوا الكاسات حول المقبرهْ
إنني ارجو من الله غداً بعد شرب الراح حسن المغفرهْ

ولما احتُضر ابو نوّاس الشاعر قال اكتبوا هذه الابيات على قبري (توفي ١٩٥ هـ ٨١٠ م)

وعظمُك اجداثٌ صُمتْ ونعتك أزمنةٌ خفتْ (٦)
وارتك قبرك في القبو م ر وأنت حيٌّ لم تمُتْ
وتكلَّمتْ عن أوجهٍ تبلى وعن صورٍ سبتْ (٧)

---

(١) من خفرت الجارية اذا استحيت اشدّ الحياء في خفرة (٢) بمعنى اذلني وسمّ الخل (الخمر) اضرعني للسوم) يضرب في الذلّ عند المحنة (٣) يريد جعلهُ يعتبر ومعرفة لم يرد في كتب اللغة بهذا الوزن والمعنى بل يقال اعبر الناقة اذا تركها عامًا لم يجزها فحال صوفها (٤) تفرّقوا (٥) تفرّقوا (٦) بمعنى ساكتة (٧) مستريحة

ووُجد على قبر جارية الى جنب قبر ابي نوّاس قبريّة وقيل انها من نظمه وهي :

اقولُ لقبرٍ زرتُهُ متلفّتاً ... سقى الله بَرْدَ العفو صاحبة القبرِ
لقد غيّبوا تحت الثرى قمرَ الدُجى ... وشمسَ الضحى بين الصفائح والقفرِ
عجبتُ لعينٍ بعدها ملّتِ البُكا ... وقلبٍ عليها يرتجي راحة الصبرِ

وكُتب على قبر الامام الشافعيّ المتوفى سنة ٢٠٤ هـ ٨١٩ م : "هذا قبر محمد بن ادريس الشافعي امين الله"

واوصى ابو العتاهية وهو يجود بنفسه (٢٣١ هـ ٨٣٥ م) ان يكتب على قبره :

أُذنٌ حيٌّ تسمّعي ... إسمعي ثمّ عي وعي
أنا رهنٌ بمضجعي ... فاحذري مثل مصرعي

ويروى ايضاً ان ابا العتاهية اوصى ان يكتب على ضريحه هذا المقرد :

انّ عيشاً يكون آخرهُ الموت لعيش معجّل التنغيصِ

ونظم يعقوب بن ليث قبريّةً لما حضرتهُ الوفاة (٢٦٥ هـ ٨٧٨ م)

سلامٌ على اهل القبور الدوارسِ ... كأنهمُ لم يجلسوا قطّ في المجالسِ
ولم يشربوا من بارد الماء شربةً ... ولم يأكلوا ما بين رطبٍ ويابسِ
فقد جاءني الموت المهولُ بكرةً ... فلم تنجني منهُ ألوفُ فوارسِ
فيا زائر القبر اتّعظ واعتبر بنا ... ولا تكُ في الدنيا هدبتَ بآنسِ
خراسان تحويها واكناف فارسٍ ... وما كنت من ملك العراق بآيسِ
سلامٌ على الدنيا وطيب نعيمها ... كأن لم يكن يعقوبُ فيها بجالسِ

ولما احتضر ابو زكريا يحيى بن عدي (٣٦٤ هـ ٩٧٤ م) الذي اشتهر في عهد المطيع العباسي اوصى تلميذهُ ابا علي اسحق بن زرعة ان يكتب على قبره هذين البيتين

ربَّ ميتٍ قد صار بالعلم حيّاً ... وبحيٍّ قد مات جهلاً وغيّاً
فاقتنوا العلم كي تنالوا خلوداً ... لا تعدّوا الحياة في الجهل شيّاً

واوصى ابن الحجاج المتوفى (سنة ٣٩١ هـ ١٠٠٠ م) ان يُدفن عند رجلي موسى بن جعفر الصادق ويكتب على قبره : "وكلبهم باسطٌ ذراعيه بالوصيد"

وكتب على قبر الملك المنصور ابي عامر المعافري الاندلسي المتوفى سنة ٣٩٢ هـ ١٠٠٣ م

آثارهُ تنبيك عن اخباره ... حتى كأنك بالعيان تراهُ
تالله لا يأتي الزمان بمثله ... كلاّ ولا يحمي الثغور سواهُ

واوصى ابو العلاء المعرّي المتوفى سنة ٤٤٩ هـ ١٠٥٧ م ان يكتب على قبره

هذا جناهُ ابي عليَّ م وما جنيتُ على أحدْ

ونظم ابو الصلت الاشبيلي قبل وفاته (٥٢٨ هـ ١١٣٣ م) ابياتاً اوصى ان تكتب على قبره وهي

سكنتُكِ يا دار الفناء مصدقاً بانيَ الى دار البقاء اسيرُ
واعظمُ ما سبّى الامر انيَ صائرٌ الى عادلٍ في الحكم ليس يجورُ
فيا ليت شعري كيف القاهُ عندها وزادي قليلٌ والذنوبُ كثيرُ
فان أكُ مجزيًّا بذنبي فانني بشرّ عقاب المذنبين جديرُ
وان يكُ عفوٌ ثمّ عني ورحمةٌ فثمّ نعيمٌ زائدٌ وسرورُ

ونظم ابن الزقّاق النحوي البلنسي الشاعر هذه الابيات واوصى ان تكتب على قبره (٥٢٨ هـ ١١٣٣ م) وهي آخر نظمه:

أإخواننا والموت قد حال دوننا وللموت حكمٌ نافذٌ في الخلائق
سبقتكمُ للموت والعمر طيّةٌ واعلم ان الكل لا بُدَّ لاحق
بعيشكمُ او باضطجاعيَ في الثرى ألم نكُ في صفوٍ من العيش رائقِ
فمن مرَّ بي فليمضِ بي مترحماً ولا يكُ منسيًّا وفاء الأصادق

ونظم محمد بن ابرهيم الشلبي الاندلسي قبريتهُ قبل ان ادركتهُ الوفاة سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٧ م

لئن نفذ القدرُ السابقُ بموتي كما حكمَ الخالقُ
فقد مات والدنا آدمٌ ومات محمّدٌ الصادقُ
ومات الملوك واشياعهم ولم يبقَ من جمعهم ناطقُ
فقل للذي سرَّهُ مصرعي تأهّبْ فانك بي لاحقُ

ونظم ابو محمد المقري الخياط (المتوفى ٥٤١ هـ ١١٤٦ م) على لسان ميت:

ايها الزائرون بعد وفاتي جدّثاً ضمني ولحداً عميقا
سترون الذي رأيتُ من الموت عياناً وتسلكون طريقا

ونظم ابن منير الطرابلسي قبريتهُ قبل ان لفظ انفاسهُ (٥٤٨ هـ ١١٥٣ م)

من زار قبري فليكن موقناً ان الذي القاهُ يلقاهُ
فيرحم الله امرأً زارني وقال لي يرحمكَ اللهُ

واوصى ابن زُهر الطبيب الاندلسي ان يكتب على قبره هذه الابيات وفيها اشارة الى طبهِ ومعالجتهِ للناس (توفي سنة ٥٩٥ هـ ١١٩٨ م)

تأمل بحقك يا واقفاً ولاحظ مكاناً دُفنا اليهِ
تراب الضريح على وجهتي كأنيَ لم امشِ يوماً عليهِ
أداوي الانام حذارَ المنونِ وما انا قد صرت رهناً لديهِ

وقال ابو محمد البطليوسي الاندلسي عند موتهِ يخاطب أبا مروان صاحبهُ وأمر ان يدفن بازائهِ ويكتب على قبرهِ :

ياصاحبي قم فقد أطلنا لحمن طول المدى هجودُ
فقال لي لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصعيدُ
تذكركم ليلةً نعمنا في ظلها والزمانُ عيدُ
وكم سرورٍ همى علينا سحابةً نرةً تجودُ
كلٌّ كأن لم يكن تقضّى وشؤمهُ حاضرٌ شهيدُ
حسّنهُ كاتبٌ حفيظٌ وضمّهُ صادق شهيدُ
يا ويلنا ان نكبتنا رحمةُ مَن بطشهُ شديدُ
يارب عفواً فانت مولىً قصّر في شكرك العبيدُ

ونظم ابن مطروح الشاعر في مرضهِ الذي توفي فيهِ (٦٤٩هـ ١٢٥١م) ليكتب على قبرهِ :

تجزع للوت هذا الجزعْ ورحمة ربك فيها الطمعْ
ولو بذنوب الورى جئتهُ فرحمتهُ كل شيء تسعْ

وقال ليكتب على باب تربتهِ

هذه تربةُ من قد عظمت منهُ الذنوبُ
والكريم المحض من يعصى فيعفو ويُثيبُ

واوصى عبد الله بن ياقٍ المالقي (توفي سنة ٧٥٢هـ ١٣٥١ م) ان تكتب على قبرهِ ابياتٌ حفرها بنفسهِ وكان قبرهُ بين قبري شيخيهِ الخطيبين ابي عبد الله الطنجالي وابي عثمان بن عيسى :

ترحّم على قبر ابن ياقٍ وحيّهِ فمن حقّ ميتِ الحيّ تسليمُ حيّهِ
وقل أمّن الرحمن روعةَ خائفٍ لتفريطهِ في الواجبات وغيهِ
قد اختار هذا القبر في الارض راجياً من الله تخفيفاً بقدر وليّهِ
فقد يشفع الجارُ الكريمُ لجارهِ ويشمل بالمعروف اهل ندیهِ
واني بفضل الله اوثق واثقٍ وحسبي ان اذنبت حب نبيهِ

ولما كشف الفرنسويون بعد تغلبهم على الجزائر قبور بني زيّان في تلمسان وجدوا ان اكثر اضرحتهم مؤرخ ومنها ضريح السلطان ابي حمو(١) كتب عليهِ اسمهُ بالقاب كثيرة (توفي سنة ٧٩١ هـ ١٣٨٨ م) وفيهِ رخامة سطر عليها هذان البيتان وهما مكتوبان بالخط الكوفي ظنّ انهما قبل هذا العهد وانهما ليسا لهُ وهما :

الموت بابٌ وكل الناس داخل والقبر لا شكَّ منزل الراحل
فكن على حذر وارقب من وصحة الموت ايها الغافل

ونظم اسعد مصطفى النقيبي ابياتاً اوصى ان توضع على قبرهِ وفيها تاريخ (توفي سنة ١١٧٨ هـ ١٧٦٤ م)

قبرٌ بهِ من اوثقتهُ ذنوبهُ وغدا لسوء فعالهِ متخوفا
قد ضاع منهُ عمرهُ ببطالةٍ والعيش منهُ بالتكدر ما صفا
ماذا طوى قبر النقيبي ارخوا مستمنحٌ للعفو اسعد مصطفى ١١٧٨ هـ

ووجد على قبرٍ

قد أناخت بك روحي فاجعل العفو قراها
فهي تخشاك وترجو ك فلا تقطع رجاها

ووجد على آخر

تناجيك اجداث وهنّ سكوتُ وسكّانها تحت التراب خفوتُ
ايا جامع الدنيا لغير بلاغةٍ لمن تجمع الدنيا وانت تموتُ

ووجد على آخر

ان الحبيب من الاحباب مختلسُ لا يمتنعُ الموت بوّابٌ ولا حرسُ
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها يامن يعدُّ عليهِ اللفظُ والنفسُ
لا يرحمُ الموت ذا جاهٍ لعزّتهِ ولا الذي كان منهُ العلم يقتبسُ
قد كان قصرُك معمورًا لهُ شرفٌ فقبرك اليوم في الاجداث منطمسُ

ووجد على آخر

قف واعتبر يامن ترى قبري وما بي قد جرى
بالامس كنت نظيركم واليوم أيراني البرى
قل ربنا ألطف بنا وارحم عظاماً في الثرى

عيسى اسكندر معلوف

(١) ولد السلطان ابو حموسنة ٧٢٣ هـ ١٣٢٣ م وملك ثلاثين سنة وكان مولعاً بالآداب الف لولده ابي تاشفين كتاباً في ادب السياسة والملك سماهُ (قلائد الدرر) وفيهِ كثير من المواعظ والحكم والتدابير